بعد أن عدت أشكال عنادهم ومظاهر تكذيبهم أعقبت ببيان العلة الأصلية التي تبعث على الجحود في جميع الأمم وهي توهمهم استحالة أن يبعث ا للناس برسالة بشرا مثلهم . فذلك التوهم هو مثار ما يأتونه من المعاذير . فالذين هذا أصل معتقدهم لا يرجى منهم أن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية وما قصدهم من مختلف المقترحات إلا إرضاء أوهامهم بالتنصل من الدخول في الدين فلو أتاهم الرسول بما سألوه لانتقلوا فقالوا : إن ذلك سحر أو قلوبنا غلف أو نحو ذلك . ومع ما في هذا من بيان أصل كفرهم هو أيضا رد بالخصوص لقولهم (أو تأتي با والملائكة قبيلا) ورد لقولهم (أو ترقى في السماء) إلى آخره .

وقوله (إلا أن قالوا أبعث ا بشرا رسولا) يقتضي بصريحه أنهم قالوا بألسنتهم وهو مع ذلك كناية عن اعتقادهم ما قالوه . ولذلك جعل قولهم ذلك مانعا من أن يؤمنوا لأن اعتقاد قائليه يمنع من إيمانهم بضده ونطقهم بما يعتقدونه يمنع من يسمعونهم من متبعي دينهم .

وإلقاء هذا الكلام بصيغة الحصر وأداة العموم جعله تذييلا لما مضى من حكاية تفننهم في أساليب التكذيب والتهكم .

يؤمنوا أن الناس جميع منع ما أي الاستغراق على (الناس) في التعريف حمل فالظاهر A E إلا ذلك التوهم الباطل لأن ا حكى مثل ذلك عن كل أمة كذبت رسولها فقال حكاية عن قوم نوح (ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء ا لأنزل ملائكته ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين) . وحكي مثله عن هود (ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذن الخاسرون) وعن قوم صالح (ما أنت إلا بشر مثلنا) وعن قوم شعيب (وما أنت إلا بشر مثلنا) . وحكي عن قوم فرعون (قالوا أنؤمن لبشرين مثلنا) . وقال قوم محمد A بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب) .

وإذا شمل العموم كفار قريش أمر الرسول بأن يجيبهم عن هذا الشبهة بقوله (لو كان في الأرض يمشون مطمئنين) تلآية فاختصر ا رسوله محمدا A باجتثاث هذه الشبهة من أصلها اختصاصا لم يلقنه من سبق من الرسل فإنهم تلقوا تلك الشبهة باستنصار ا تعالى على أقوالهم فقال عن نوح (قال رب إن قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين) .

وقال مثله عن هود وصالح وقال عن موسى وهارون (فكذبوهما فكانوا من المهلكين) فقد ادخر ا لرسوله قواطع الأدلة على إبطال الشرك وشبه الظلال بما يناسب كونه خاتم الرسل

ولهذا قال في خطبة حجة الوداع : " إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي أن يطاع فيما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم " .

ومعنى قوله (لو كان في الأرض ملائكة يمشون) الخ : أن ا يرسل الرسول للقوم من نوعهم للتمكن من المخالطة لأن اتحاد النوع هو قوام تيسير المعاشرة قال تعالى (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) أي في صورة رجل ليمكن التخاطب بينه وبين الناس .

وجملة (يمشون) وصف ل (ملائكة) .

و (مطمئنين) حال . والمطمئن : الساكن . وأريد به هنا المتمكن غير المضطرب أي مشي قرار في الأرض أي لو كان في الأرض ملائكة قاطنون على الأرض غير نازلين برسالة للرسل أنزلنا عليهم ملكا .

ولما كان المشي والاطمئنان في الأرض من صفة الإنسان آل المعنى إلى : لو كنتم ملائكة لنزلنا عليكم من السماء ملكا فلما كنتم بشرا أرسلنا إليكم بشرا مثلكم .

ومجيء الهدى هو دعوة الرسل إلى الهدى .

(قل كفى با شهيدا بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا [96]) بعد أن خص ا محمدا A بتلقين الحجة القاطعة للضلالة أردف ذلك بتلقينه أيضا ما لقنه الرسل السابقين من تفويض الأمر إلى ا وتحكيمه في أعدائه . فأمره ب (قل كفى با) تسلية له وتثبيتا لنفسه وتعهدا له بالفصل بينه وبينهم كما قال نوح وهود (رب انصرني بما كذبون) . وغيرهما من الرسل قال قريبا من ذلك .

وفي هذا رد لمجموع مقترحاتهم المتقدمة على وجه الإجمال .

ومفعول (كفى) محذوف . تقديره : كفاني . والشهيد : الشاهد وهو المخبر بالأمر الواقع كما وقع